الدكتور
الشيخ محمد الصادقي

حوار بين أهل الجنة والنار

بين الله وأهل النار
بينهم وبين الزبانية
بينهم وبين ملائكة الموت
بينهم بعضهم مع بعض
بينهم ومن أضلوهم
بينهم وبين أهل الجنة

دار التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
ص. ب : ٩٥٨٤

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلواته الزاكيات على محمد سيد المرسلين وعلى آله الطاهرين .

* * *

.. إن أهل النار ـ مهما أنكروا الحق وكذبوه وسخروا منه ومن اهله ـ مهما أنكروه في دار الدنيا ـ فسوف يعترفون بضلالهم يوم القرار ولات حين مناص .

إن زعيم الضلال ـ الأصيل ـ الشيطان الرجيم ، الذي يستخدم كافة وسائل الإعلان والإذاعات في الدنيا ، وممن يدّعون الحق كذلك ـ سوف يواجه أتباعه في إذاعة جهنمية شاملة ، يُسمعهم أنه لم يكن على شيء :

اذاعة إبليس :

« وقال الشيطان لما قُضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم

بمصرخيَّ إني كفرت بمـــا أشركتمونِ من قبل إن الظالمين لهم عذابٌ أليم » (١٤ : ٢٢) .

فيا لهـا من مقالة حاسمة منه يوم القيامة ـ إذ قضي الأمر ـ عليه وعلى أتباعه من خيله ورَجله .

الشيطان يعترف :

الله ! الله ! أمـا إن الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ، ويغري بالكفر والعصيان .. هل إنه سوف يطعن أتباعه هذه الطعنة الأليمة الناقدة النافذة الساخرة ! وقد قضي الأمر ، ورجعت الأمور إلى الله !.. فلا يملكون عليه رداً ولا إلى الدنيا مرداً ! إنـه يقول آنذاك وبعد فوات الأوان ولات حين مناص :

« إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم » !

يقول : إنه ليس كما كنتم تزعمون يوم الدنيا ، أن الحق مـع القوة والشهوة وحرية الحيونة .. لا نعرف سواهـا ولا نعبد إلا إياها،ولا نحوم إلا حولها .. فمن هذا الذي رأى الله ليخبر عنه، ومن هذا الذي رجع من القبر ليخبر عنه ومَن ؟..

فالحق إذاً هو ملذات الحياة وأريحيتها وما سواه باطل !.

فالآن أقول ـ كما سبق القول من رجالات الوحي، وكما كانت

العقول تصدقه ـ أقول : إنّ وعد الله كان حقاً في كافة مجالاته ، حقاً في تصديق الفطـَر والعقول، حقاً بشهادة الآيات المعجزات، حقاً بما كان يخلق من حياة سليمة سامية مطمئنة ، حقاً بمـا كان يُطمئن النفوس ، مُخرجاً لها عن غوغائية الحياة واضطراباتها ، حقاً في التصور والأمل، وفي التطبيق والعمل، دون أن تظهر له ظاهرة من مظاهر الخلف والبطلان .

« ووعدتكم فأخلفتكم » .. ولكن مواعيدي المسبَّقة كانت كلُّها تعاكس مواعيد الله تماماً ، خلفـاً لا في الآخرة فحسب ، بـــل وفي الدنيا أيضاً ، إذ غمرتكم أغمارهـــا ، وسحرتكم مغرياتها .

كيد الشيطان :

وبعدئذٍ يُخزيهم وَخزةً أخرى ، إذ يعيِّرهم باستجـابته ، وليس له عليهـــم سلطان ! سوى أنهم تخلّوا وتحلّلوا عـن شخصياتهم ، ونسوا وتناسوا ما للشيطان عليهم من عداء قديم ، فاستجابوا دعوته دون أن يأتي بحجة إلا الدعوة المغرية ، المثيرة للشهوة :

«وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي »: لا سلطاناً في ميدان النضال الجسداني ، ولا سلطـــاناً عقلياً ، ولا سلطاناً فيما تُقنع العقول من آيات ومعجزات فتقبلها ، وكا

مصارحة رابعة يخلّي بهم ، وينفض يده منهم ، رغم أنه كان يعدهم ويمنيهم ، ويوسوس لهم أن لا غالب لهم ، فأما الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا ، كما أنهم لن يُنجدوه إذا صرخ ، فإنهم على سواء : « مـا أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي » ليست بيننا صلة ولا ولاء ..

ثم في جولة خامسة يبرأ من إشراكهم بـــه ، ويكفر بهذا الإشراك : « إني كفرت بمـــا أشركتمون من قبل » .. ثم يعمه ويعم أوليائه : « إن الظالمين لهم عذاب أليم » .. إنهم كانوا ظالمين فيستحقون العذاب الأليـــم ، سواءٌ منهم من أضل ومن ضل ، فهم شركاء في الضلال العامد ، مهـــما اختلفت مراتبه وبيئاتـــه .

فيا للشيطان ! ويا لهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ، ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم !.

بين المضلين وأتباعهم :

وقـــد يخيّل إلى أتباع الضلالة أنهم معذورون إذ أوتوا من حيث لا يعلمون ، وسيطرت عليهم الشيطنات من حيث يجهلون ، لكنهم جميعاً محشورون إلى صراط الجحيم : « أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون . من دون الله فاهدوهم إلى

صراط الجحيم . وقِفوهم إنهم مسئولون . ما لكم لا تناصرون . بل هم اليـوم مستسلمون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين . قالوا بل لم تكونوا مؤمنين . وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين. فحقّ علينا قول ربّنا إنا لذائقون . فأغويناكم إنا كنا غاوين . فإنهم يومئذ في العـــذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين » (٣٧ : ٢٢ ـ ٣٤) .

الظالمون وأزواجهم :

ويُسئل هنا : هؤلاء الظالمون يحشرون إلى صراط الجحيم ، فما ذنب أزواجهم إذ يحشرون معهم ؟ فإن كانوا هم ـ أيضاً ـ من الظالمين فليشملهم : « الذين ظلموا » وإلا فلماذا الحشر مـــع الذين ظلموا ؟

والجواب نجده في الآيات أنفسها : « قالوا (أزواج الظالمين) إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين : (عن طريق يصدّق كأنه اليمين ، كأنه طريق الدين) قالوا : بل لم تكونوا مؤمنين » .

وسؤال آخر : هـذا خلاف الواقع الملموس : أن تكون أزواج الظالمين أتباعهم في الظلم ، فقد نجد منهم من هو مَثَلٌ للإيمان ، زوجـــاً أو زوجة ، كامرأة فرعون : « وضرب الله

مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجّني من فرعون وعمله ونجّني من القوم الظالمين » (٦٦ : ١١) .

والجواب أن الزوج لغوياً هو القرين ، سواء أكان قريناً في الحياة الجنسية والبيتية كالزوجين ، أو في الحياة العقائدية: في ضلال أم في هدىً ، أم في أصل الكيان المادي : كالإزدواجية المادية الشاملة كيان المادة أياً كان ، أو .. والأزواج في هذه الآيات هم الأزواج في الناحية العقائدية والأعمالية كما الآيات أنفسها تشهد :

« احشروا الذين ظلموا » : قوّاد الضلالة « وأزواجهم »: من هم على شاكلتهم من الظالمين ، إذ اتبعوا رؤوس الضلال » ..

ولهجة جازمة فيها تهكم واضح : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » .. إنها لهي الرد المكافيء لما كان منهم من ضلال عن الهدى ، وكأنه الهدى ! وإذ لم يهتدوا في الأولى إلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا في الأخرى إلى صراط الجحيم ، فكلما وراء الصراط المستقيم هو صراط الجحيم .

وإذ كانوا يتناصرون في ضلالهم ، وكانوا موعودين بالتناصر من رؤوس الضلالة يوم الدين ، فليتناصروا هنا : « ما لكم لا تناصرون » وبدلاً عن التناصر تتخاذلون وتتجادلون ..

ولكنهم ليس لهم جواب ، إلا أن يجاب عن واقعهم المرير : « بل هم اليوم مستسلمون » .

مستسلمون لحكم الله هناك : عابدين ومعبودين ، تابعين ومتبوعين :

وإذا استسلموا جميعاً ، ولم يجدوا جواباً عن سؤال ، يضطروا للتساؤل فيما بينهم : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » يتساءل التابعون المتبوعين : لماذا أضللتمونا على جهلنا بكيدكم ؟ فنحن إذاً بريئون .

« قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين » واليمين هو الدين كما الشيطان حدّده من جغرافيته في مجالات الإضلال : « ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » (٧ : ١٧) :

• **جغرافية الاضلال وحدوده :**

.. إنها ليست جغرافية الجوانب الحسية ، إنما هي روحية ، إذ يوسوس الشيطان بخيله ورَجِله من الجنة والناس : يوسوس من نواحي عدة :

١ ـ « من بين أيديهم » : من العالم الذي يستقبلهم : الحياة

الآخرة ، فيزيفها لهم كما يقدر ويجهلون أو يتجاهلون : من جاء من القبر فأخبركم عنه ؟ لو كانت جنة فأنتم من أهلها ، فما هي حاجة رب العالمين أن يدخلكم النار؟.. إن هناك شفعاء يشفعون لكم : « من بكى أو أبكى أو تباكى وجبت له الجنة » !

٢ – « ومن خلفهم » : من الدنيا وزخارفها ومغرياتها .

٣ – « وعن أيمانهم » : لمن يزعمونهم من أصحاب اليمين ، من أهل الدين ، وليسوا منهم : « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ».

٤ – « وعن شمائلهم » : وهي شهواتهم ، يستخدم شهواتهم ويكرّسوا في نضال عقولهم المتخاذلة السمحة في تحللها عن أحكامها[1] .

« ولا تجد أكثرهم شاكرين » .. لا يشكرون نعمة العقل والفطرة السليمة ، نعمة رجالات الوحي وآيات الوحي ، « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » !

---

(١) عن باقر العلوم في تفسير الآية ، من بين أيديهم معناه : أهون عليهم أمر الآخرة ، ومن خلفهم : آمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم ، وعن أيمانهم : أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة ، وعن شمائلهم : بتحبيب اللذات إليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم (نور الثقلين ج ٣ ص ١١) .

كنتم تأتوننا عن اليمين :

.. إنكم كنتم تحتالون في إضلالنا جانب اليمين ، ما يزعمه الجاهل حقاً من الدين ، فما هو ذنبنا ؟

وعندئذٍ ينبري المتهَمون ، لتسفيه هذا الإتهام وإلقاء التبعة على الأتباع أنفسهم : « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين » : .. لم تكن وسوستنا هي التي أغوتكم بعد إيمان ، وأضلتكم بعد هدىً ، بل إنكم ـ مبدئياً ـ لم تكونوا مؤمنين : علمياً وعقائدياً وعملياً ، فإن المؤمن الصادق في إيمانه ، يفرض على نفسه الحياد تجاه الضالين ، يعدّ لنفسه الطاقات المكافحة جنودَ الضلالة ، فلا ضلال ـ إذاً ـ إلا عن تقصير ، مهما اختلفت درجاته : « بل لم تكونوا مؤمنين » : لم تكونوا من أصحاب اليمين ، بل لم يكن لكم يمين ، إنما كنتم من الغاوين ، كما الله يصرح : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا مَن اتبعك من الغاوين » فإنما يهديكم الشيطان إلى استزادة الغواية ، لا إلى أصلها .

.. فأنت تدّعي الإيمان ، ثم لا تدعمه بما يحتاجه الإيمان من دعائم : « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين » !

« وما كان لنا عليكم من سلطان » : نُرغمكم به على قبول ما نراه ، ونضطركم إليه رغم عدم رغبتكم فيه : « بل كنتم قوماً طاغين » :

طغيان مغروس في قلوبكم ، مطروسٌ قبـــل أن نأتيكم ، فلم نكن نحن الزراعين ، وإنما حاصدين لمـا بذرتم ، ومظهرين لما أخفيتم .

« فحقّ علينا قول ربنا إنا لذائقون »: استحققناه نحن وأنتم على سواء ، رغم اختلاف درجات العذاب : جزاء وفاقاً .

« فأغوينا كم إنا كنا غاوين » : الغـــواية كانت طبيعتنا ، والإغواء مهنتنا .. كرسنا جميع طاقاتنا للإغواء ، وأما أنتم ، أنتم ! تخاذلتم واتبعتمونا دون أن يكون لنـا سلطان ، وبجنبكم ومعكم سلطان الله، من حكم العقول والفِطَر ، ومن آيات النبوات الصادقة ..

يأتونكم عن اليمين :

إن الضالين يحاولون من كافـــة الطرق ليضلوا الضعفاء عن الدين ، يأتونهم عن الشمال وعن اليمين ، عن الدنيا وعن الدين .

فقد يأتيك من طريق الصلاة قائلاً : .. ومـــاذا تعني من الصلوة ؟ صلاتك هذه ، التي لا لبّ فيها ولا حقيقة ، هـذه التي لو أدّيتها أداءً لشكر المخلوقين ما قبلوها منك شكراً، إلا مهانة وإهانة، إلا كذباً وزوراً، إلا دجلاً وغروراً ، فهل أنت صادق في قولك : إياك نعبد وإياك نستعين؟ كلا ! وأنت تعلم أنه كلا ..

فهل يا ترى إن هذه الصلاة تجـدر لساحة قدس الربوبية ، فلئن كسبت لك وزراً أحق من أن تكون شكراً ، فلتتركها ، أو تصليها كما يحق لساحته الربوبية ..

فقد أتاك عن اليمين وأضلك عن عمود الدين .. وهنا تجـد الجواب ضمن الجواب : « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين » لم تكونوا من أهل اليمين ولا من أصحاب اليمين والدين ، لم تكونوا تعرفوا ما هو عمود الدين : الصلاة .

إن الصلاة في ألفاظها شكر ، وفي معانيها شكر ، وفي أعمالها شكر ، وكلها شكر واحترام لساحة الربوبية ، والرب تعـالى يأمر أن يؤتى بها صحيحة كاملة الأجزاء والشرائط في هيكلها ، يأمر بها هكذا لأبسط مراتب الفرض ، فلو تركتها فقد تركت أبسط الفرائض .. ثم المداومة على الصلاة والتدرّج في إقامتها معنوياً كما تقام في هيكلها ، هذا التدرّج يأخذ بالإنسان إلى كمال الصـلاة ..

إن ترك الصلاة ـ كيفما كانت ـ معناه : أنني يا ربّ أحترم كل صديق وعدو ـ ولا أحترمك أنت !.

قل لشيطانك الآتي إليك عن هذا اليمين : إن ربي مـا افترض عليّ الصلاة لأعلى درجاتها ، إنه يرضى مني وإنْ بهيكلها

كبداية المطاف ، ثم إلى نهاية المطاف .. « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » .

حتى يأتيك اليقين :

وقد يأتي عن اليمين ـ يمين الصلاة ـ بصورة أخرى ، وإلى من يزعم أنه بلغ إلى اليقين، وليست الصلاة إلا لتحصيل اليقين، ويقرأ عليك الآية : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وقد أتاك اليقين ، فلماذا هذا التعب المتواصل ؟

والجواب تجده ضمن الجواب: « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين » فإن المؤمن يعرف ألا وقفة ولا نهاية لدرجات المعرفة والإيمان ، فكل مرتبة من المعرفة فوقها مرتبة وإلى .. فهل تجد أحداً وصل إلى آخر درجات المعرفة ، إلى آخر المطاف في معرفة الله، التي لا نهاية لها ؟

وهل أنت أعرف بالله من رسول الله ، الذي كان يزداد صلاة وعبادة كلما ازداد معرفة ، وأُمر أن يدعو : « وقل ربِّ زدني علماً » : بك ومعرفة لك ، وأرقى وسائل المعرفة هي الصلاة ، وكان ﷺ إذا همّه شيء استراح إلى الصلاة .

وثم بعد كمال المعرفة ، إن الصلاة شكر واحترام ما دامت

النعمة ، فهل يا ترى ، نعم الله تنقطع عنك ولو لآنٍ ما « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » !

ثم الرسول ﷺ وهو أول العابدين ، لم يتوقف قطُّ عن الصلاة ، وقد بلغ من المعرفة إلى درجة فوق التصور ، فكيف لهؤلاء الزاعمين أنهم من العارفين لله لدرجة اليقين أن يتركوا الصلاة ؟ !

وقد يأتي عن اليمين بوسوسة ثالثة وليهدم عمود الدين ـ الصلاة ـ نهائياً: ما هي حاجة الرب تبارك وتعالى إلى صلاتك ولو كانت هي اللائقة بحضرته ، فهل يخسر الله بترك الصلاة ـ أم هل يربح بصلاتك ؟

تجد الجواب أيضاً ضمن الجواب : « بل لم تكونوا مؤمنين »: إن الإيمان بالله يدلنا إلى ضرورة شكره وحرمته ، والتذلل له ، وإن لم يفرضه ، كيف وقد فرضه في مئات الآيات ، وليست الصلاة لأجل أن ينتفع به رب العباد، إنما العباد هم الذين ينتفعون بالصلاة ، يُثبتون بها أنهم شاكرون لأنعم الله ، وأنهم ليسوا بأدنى من الكلب الذي يشكر المنعم عليه بعظم مجرد عن اللحم، فيحرّك ذنبه إذ يراه ، تدليلاً على خضوعه وشكره .

.. هنا وهناك ترى أن الإضلال من ناحية اليمين لا يؤثر إلا على غير المؤمنين، إيماناً عقائدياً وعلمياً وعملياً، فماذا ينفع إيمان فيه

مدخل للشيطان ؟ فإن الإيمان يؤمن ويطمئن الإنسان عن سائر الإضطرابات اللاإيمانية .

إن للشيطان خطوات تنتهي إلى الشرك بالله ، ونكران وجود الله ، فقد يأتيك ـ كمن يحترم ساحة الربوبية المقدسة ـ قائلاً : هل يا ترى إن الله يأتي منه الضر والشر ، يأتي منه الدمار والبوار ، يأتي منه الضلال والغواية ؟ إن المؤمن بالله لا يقبل هكذا ، فليكن في الكون إله آخر هو المصدر لهذه النكبات ، هو إله الشر ، كما أن الله إله الخير ، فلتعبد إله الخير لكي يمنحك بالخير ، ولتعبد إله الشر ليمسك عنك الشر .. وهكذا يخرجك عن التوحيد ، وقد أتاك عن اليمين .

تجد الجواب هنا أيضاً ضمن الجواب : « بل لم تكونوا مؤمنين » :

إن الإيمان بالله وعرفانه كما يجب ، يذود عن الإنسان هذه الوساوس[1] : إن قضية الإيمان الصحيح هو توحيد الإله في كيانه وسرمديته ، في صفاته وأفعاله ، وأن الخير كله بيديه والشر ليس إليه ، وإنما الشر من نتائج التخلف عن السنن الإلهية : كونية وتشريعية ، والشيطان هو أيضاً من خلق الله ، وهو

---

(١) راجع كتابنا « حوار بين الآلهيين والماديين » باب التوحيد .

ابتلاء لخلق الله ، كلبٌ هراش واقف على صراط الله المستقيم ، يمنع الضالين ، وليس له أن يمنع عباد الله الصالحين ، طالما نيته سيئة ، وإنما نتاج محاولاته في صدّه عن سبيل الله ، إنه نتاج صالح للمؤمنين ، يتدرّجون – على ضوء مكافحاتهم الدائبة – إلى درجات أرقى ، طالما يتيه فيه التائهون .. « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين » .

فالشيطان إنما يأتي من نواحي الضعف في الإيمان ، والقوة في الشهوات « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » .

فليكن المؤمن على خبرة وبصيرة في إيمانه ، الإيمان المكافح علمياً وعقلياً ، ولكي ينهزم الشيطان في معاركه ..

إنه يصوّر الحق بصورة الباطل ، والباطلَ بصورة الحق ، وعندئذ يستحوذ الشيطان على أوليائه ، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى .. وعلى حد قول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام : « إنما بدءُ وقوع الفتن أهواءٌ تُتَّبَع ، وأحكام تُبتَدَع ، يخالَف فيها كتاب الله ، ويتولى عليها رجال رجالاً ، فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ، ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ، ولكن يُؤخذ من هذا ضِغثٌ ومن هذا ضغث ، فيُمزجان فيجيئان معاً ، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى » .

المستضعفون .. المقصرون والقاصرون :

.. وقد يعتذر الضالون بقصورهم : أن أضلهم المضلون وهم قاصرون ، لا يدركون معنى الهداية والضلال ، فهم منجرفون بأيّ جارف !

ولكنهم أيضاً من المقصرين ، ما كان لهم شعورٌ ما عن الضلالة والهدى :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا : فيم كنتم قالوا كنا مستضعَفين في الأرض قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوّاً غفوراً . ومن يهاجر في سبيل الله يجدْ في الأرض مُراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً »
(٤ : ٩٧ - ١٠٠) .

.. المستضعفون على طوائف عدّة ، مهما كان الإستضعاف روحياً معنوياً، أو ظاهرياً أعمالياً ، فمنهم من يجد حيلة يفرّ بها عن ضغط الكفر والفسق ، كأن يهاجر إلى بلاد أخرى، ولكنه لا يفر ، فهم الظالمون أنفسَهم .

ومنهم من لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً ، فأولئك المظلومون القاصرون، عسى الله أن يعفو عنهم ، إذا كانوا كذلك في النهاية .

ومنهم القاصرون في البداية والنهاية ، سُيِّروا إلى أرض الكفر دون اختيار منهم،ثم لا حيلة لهم في الخروج ، وهم أقرب إلى العفو عنهم .

ومنهم القاصرون عقلياً ، أو هم دون التكليف ، فمعنى العفو عنهم هو العفو عن التكليف ، أو لا يشملهم العفو المحتمل : « عسى الله أن يعفو عنهم » إذ هم خارجون عن التكليف ، فلا سؤال حتى يستحقوا الجزاء ، فيعفى عنهم !.

إن النص هنا يشير إلى واقع مرير مضى في الجزيرة العربية ، وإن كان لا يختص به كما لا تختص سائر الآيات بموارد ومناسبات نزولها .

الرسول الأقدس ﷺ هاجر مكة إلى المدينة ، وأقام هناك دولة الإسلام قوية متقدمة ، فمن المسلمين من هاجر مع الرسول ﷺ متحمّلاً وعثاء السفر ومشاق الهجرة ، تاركاً أمواله ومصالحه ، حيث لم يكن المشركون يدعون مسلماً يهاجر ، حتى يمنعوه ويرصدوا له .

ومنهم من لم يهاجروا، حبستهم أموالهم ومصالحهم، وحبسهم خوفهم وإشفاقهم من ميثاق الهجرة : « وقالوا إن نتّبع الهدى معك نُتخطّف من أرضنا أولم نُمكّن لهم حرماً آمناً يُجبى إليه ثمرات كلّ شيء رِزقاً من لدنّا ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون» (٢٨ : ٥٧) .

وجماعة حبسهم عجزهم الحقيقي، من الشيوخ والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة للهرب ، ولا يجدون سبيلاً للهجرة .

وقد اشتد أذى المشركين لهؤلاء البقية الباقية من ضعفاء المسلمين المستضعفين ، بعد عجزهم عن إدراك الرسول ﷺ والمسلمين المهاجرين ، وبعد انتصارهم في معركة بدر ـ ذلك الإنتصار الحاسم ـ فأخذ المشركون يسومون المتخلفين عن الهجرة، يسومونهم سوء العذاب ، ويفتنونهم عن دينهم في أشد الغيظ والعداء السافر ، وفعلاً فُتن بعضهم عن دينهم ، واضطر بعضهم إلى إظهار الكفر ومسايرة المشركين ومشاركتهم في عبادتهم ؛ ولقد كانت هذه التقية جائزة يوم لم تكن دولة إسلامية قائمة ، بإمكانهم المهاجرة إليها ، وأما الآن وقد اشتد ساعد الإسلام فكان لزاماً عليهم الهجرة، ولم يهاجروا فسُمّوا ظالمي أنفسهم ، بما أنهم حرموها الحياة في دار الإسلام ، تلك الحياة الرفيعة السعيدة النظيفة الكريمة الحرة ، على ضوء دولة الإسلام في المدينة

المنورة .. وألزموها الحياة في دار الكفر ، تلك الحياة الذليلة الخانسة الضعيفة المضطهدة .

وتوعّدهم : « جهنم وساءت مصيراً » جهنم الدنيا والآخرة .

وهكذا ندرس في هـذه الآيات كيف يتوجب على المسلمين الحفاظ على كرامة الإيمان وأعمال الإيمان ، والمهاجرة ـ في سبيل الحفاظ عليها ـ إلى أراضي الإسلام ، أو أراضي يخفّ الوطؤ فيها على المسلمين ، مكرّسين كافة طاقاتهم في هذه السبيل :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » : لمـاذا ظلمتم أنفسكم وهدرتموها بالمقـام مع الظالمين المستغلين المستعمرين المستحمرين ؟ « قالوا فيمَ كنتم ؟ » : في أي جو وعلى أي تيار ؟ فهل كان جـديراً لكم أن تظلوا في بلاد المشركين ، غارقين في اضطهاد ، مسلوبي الحرية في الحياة ؟

« قالوا : كنا مستضعفين في الأرض » : وَي ! كأنما الأرض كانت محصورة منحصرة في أرض الكفر ! كلا ـ وإنما هم زعموا أن مصالحهم محصورة فيهـا ، ولذلك سموها : « الأرض » كأنها الأرض كلها ، ولا أرض في الأرض سواها ! ..

« كنا مستضعفين » يستضعفنا الأقوياء ، لا نملك من أمـرنا شيئاً ، إذ كان الحكم كافراً لا يسمح لغير الكفر ديناً ولا حكماً .

« قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » ؟ طالما كانت أرض اللهـــو والتجارة ضيقة كأنهـــا محصورة بأرض الشرك ، وطالما أرض الذل والخمود والإنظلام كانت كأنهـــا محصورة بها ..

لكنما الواقـــع أن أرض الله واسعة ، لا تختص ببلاد الكفر وإن كانت من مواطنكم وفيهـا مصالحكم : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » تهاجروا إلى بـــلاد صالحة ، إلى المدينة المنورة حيث الدولة الإسلامية قائمة .. وإلى الأجواء المسلمة التي لا تضغط على المسلمين ، أم ليست كالتي أنتم ساكنوها .

فلم يكن العجز والقصور ـ إذاً ـ هـــو الذي يحمل هؤلاء المستضعفين على قبول الذل والهوان ، والفتنة عن الإيمان ، إنما هو للتقصير واللامبالاة في الحفـاظ على الإيمان ، إنما هو الحرص على أموالهم وأنفسهم ومصالحهم ، هو الذي يمسكهم دار الكفر ، وهناك دار الإسلام ! ويمسكهم في الضيق ، وهنـاك أرض الله الواسعة ، والهجرة إليها مستطاعة مهما كانت الآلام والتضحيات ! . « فأولئك مأواهم جهنم وســـاءت مصيراً » : مأواهم الذي رضوا بها مأوى في الدنيا ، ومأواهم الأخير ـ نتاجاً عن الأول ـ في الآخرة .

يروى أن النبي ﷺ بعث بهـــذه الآية إلى مسلمي مكة ، فقال جندب بن ضمرة لبنيه : إحملوني فإني لست من المستضعفين، ولا أني لا أهتدي الطريق ، والله لا أبيت بمكة ، فحملوه على سرير متوجهاً إلى المدينة ، وكان شيخاً كبيراً فمات في الطريق ، فنزلت في شأنـه الآية . « ومن يخرج من بيته مهاجـراً إلى الله ورسـوله ثم يدركه الموت فقد وقـع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً » .

هـــذا ـ وقد يجب أن يظل المسلم في أرض الكفر ـ لفترة أو دائماً ـ ولكي يخلق جواً إيمانياً ويكافح التيار الجـــارف ، فالمؤمن القوي هو الذي يؤثر ، وله حركة دائبة ليضم الطائشين المحتارين إلى جماعة المؤمنين، أو ـ وعلى أقل التقدير ـ ألاّ يتأثر بالتيار المضاد إذا لا يؤثر ، فهو إذاً متوسط في الإيمان ، وأما أن يتـأثر ، قاصراً أو مقصراً ، فهو الضعيف الذليل ، لا يملك من الإيمان إلاّ لفظه وصورته ، ربما تفوته الصورة ويفوته اللفظ ، منجرفاً بالتيار المضاد .

« إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يجدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله غفوراً رحيماً » .

هؤلاء هم الذين يُستضعفون ولهم حيلة أو سبيل للتخلص ، وأما من لا يجدون حيلة ولا يستطيعون سبيلاً من الشيوخ الضعاف والنساء ، فهم معلقون بالرجاء على عفو الله ـ إذا لم يكن الدخول في أرض الكفر باختيارهم ، أو أنهم آمنوا فيها ثم لم يجدوا عنها محيصاً ، أو كان الدخول في أرض الكفر والبقاء فيها باختيارهم ، ثم أصبحوا لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً « فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم » طالما درجاتهم مختلفة في احتمال العفو ، وطالما الأطفال لا تكليف لهم ولا عقاب .. فيأتي هنا سؤال يختصهم وآخر يعمهم وزملاءهم في الضعف .

سؤال أول : إذا لم يكن الولدان من المكلفين ، فكيف يوعدون بالنار إذا استطاعوا حيلة ووجدوا سبيلاً؟ وكيف يعفى عنهم على احتمالٍ ، لو أنهم كانوا قاصرين لا يجدون سبيلاً ؟.

وسؤال ثان: هؤلاء هم المستضعفون المقصرون يعذّبون ،فما بال القاصرين منهم ، يؤتى في العفو عنهم بصيغة الترديد : « عسى الله أن يعفو عنهم » ؟. « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوّاً غفوراً » .

والجواب أن القصور على نوعين : قصور عارض كالشيخوخة وأشباهها من الضعف ، وهو داخل في : « لا يستطيعون حيلة »، وقصور ذاتي كالصبا والبله والجنون، فكان ولا بد من استثنائهم بين هؤلاء ، ولا يقتضي الإستثناء هنا أنهم داخلون فيمن سبقهم من المستضعفين الظالمين ، وإنما استثنوا هنا كيلا يتوهم متوهم أنهم داخلون في الجمع ، ولكي نتأكد شمول العذاب للمستضعفين المقصرين تماماً أو بعضاً ، فالإستثناء ـ إذاً ـ بالنسبة للقاصرين تماماً ، استثناء منقطع ، يفيد استغراق الحكم لمن سواهم ، كما يقال : خاضوا المعركة إلا رُضَّع الأطفال ، وكذلك هنا : « فأولئك مأواهم جهنم .. » إلا الذين لا يجدون حيلة ولا يستطيعون سبيلاً ـ من الأطفال والبله والمجانين، ومن الشيوخ والنساء القاصرين أولاً وأخيراً ، ومنهم : القاصرون أخيراً « فأولئك » الآخرون ـ الذين لهم بعض التقصير بإقدامهم على المقام في أرض الكفر ـ وإن اضطروا أخيراً : « فأولئك عسى الله أن يعفوا عنهم وكان الله عفواً غفوراً » .

وهذا مما يؤيده ويؤكده العقل ، أن الجاهل القاصر ولا سيما من هو دون التكليف ، لم يكن الله ليعذبه ، ولن يكون : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » وأوّله وأولاه رسول العقل والعلم اللذان لم يؤتيا للمجنون والطفل .

حوار بين أهل النار :

« . ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استُضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددنا كم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استُضعفوا للذين استكبروا بل مكرُ الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسرُّوا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناقِ الذين كفروا هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون » (٣٤ : ٣١ ـ ٣٣) .

موقف آخر للمستضعفين في حوار بينهم وبين المستكبرين ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يتبرأ كلٌ مما يتهمه الآخر ، موقف حاسم ، يرجع بالذل والهوان ـ وأكثر ما كان ـ إلى المستضعفين ، وإن كان للمستكبرين عذاب فوق العذاب بما كانوا يستكبرون في الأرض وبما كانوا يمرحون .

« ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » وقوفاً دون إرادة واختيار ، عند موقف الربوبية ، الرب الذي كانوا ينكرون لقاءه ، وها هم أولاء موقوفون عنده « يرجع بعضهم

إلى بعض القول » فماذا يرجعون من القول ؟ وإلى مَ ترجع حالهم بعد تراجع القول ؟ :

« يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين » .. فعليكم تبعة الوقفة المرهوبة المهينة ، وما يتوقع بعدها من البلاء ، فلقد كنا ـ ذاتياً ـ مؤمنين ، وأنتم الذين حملتمونا على الكفر ، فلتزروا أوزارنا الآن ، كما حمّلتمونا إياها قبل الآن .

فيأتيهم الجواب الحاسم من المستكبرين : « قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين » :

استفهام يستنكرون فيه أن يكونوا هم العلة الأصيلة في الصدّ عن الهدى وبعد إذ جاءكم .. فإما أنكم لم تكونوا مهتدين ، وإنما متظاهرين بالهدى ، أو كنتم مهتدين متربصين لدعوة الردى ، فقد كنتم ـ مهما كنتم ـ مجرمين .

إنّ ذاتية الضلال الحاصلة بإجرامكم ، هي التي استجابت إلى ضلال آخر ، فكلّ إناء بما فيه يرشح .

هنا يرجع المستضعفون جولة ثانية : « قالوا بـل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً » .. ثم لا جواب فراراً عن التكرار وسكوتاً عن سبق الجـواب عنه : « أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم » .

فدعاية الضلال كلما كثرت وتواترت ، إنها ليست بالتي تصد عن الهدى بعد إذ جاءت، إذ قد تبين الرشد من الغي، فلا تأويل للضلال بعد الهدى إلا إجرامية الذات والتسامح عـــن الحياة العقلية إلى حياة التبعية ، والتخاذل وتجاه المستكبرين .

هنا ـ وفي ختام الحوار ـ إذ كَلَّ الكلُّ عن الحصول على نتاج ، هنا يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لا ينفع لاهؤلاء ولا هؤلاء،فلكلٍّ جريمته وإثمه، لا يعفى عنهم أنهم كانوا مستضعفين ، بل: « لكلٍّ ضعف ولكن لا تعلمون ».. وضعف المستضعفين الإجرام ، ولتجاهل نعمة العقل والحرية،واستقلالية الحياة العقائدية المفروضة على كل إنسان : أنهم رضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولاً فأصابهم الكمد والحسرة ، وهم والمستكبرون يرون العذاب حاضراً لا محيد عنه: « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا » كما جعل المستكبرون أغلال الضلال على أعنـــاق المستضعفين ، وكما قبل المستضعفون هذه الأغلال : « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » : فالجزاء هو العمل مهما اختلفت الصورة ، ولكنما الماهيـــة هي الماهية ..

ولكنها الأغلال هذه كانت حاضرة في الدنيا مع أغلال العصيان ، مستورة بستار الدنيا ، غافلاً عنهـا المجرمون : « لقد كنت في غفلة من هـذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليـوم حديد » (٥٠ : ٢٢) ..

هـذا ـ وإن ضعف العذاب للفريقين لا ينافي حمل المضلين أوزار ضلال الضالين ، دون أن ينقص من أوزارهم ، وكما هـو الحـكم القاطع عقلياً وكتابياً ، وهو الجزاء الوفاق .

أغويناهم كما غوينا :

.. كاعتذار أو حوار حاسم أعذارَ الضعفاء: « ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون . قـال الذين حق عليهم القول : ربنـا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا . تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون .وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهـم ورأوا العذاب لو أنهـم كانوا يهتدون » (٢٨ : ٦٢ ـ ٦٤) .

أغويناهم كما غوينا ، ولأننا غوينا : والغاوي لا يأتي منه إلا الإغواء ، ولأن السنة جارية في التوسع لكل هاد نشيط ، ولكل ضال نشيط .

ربنا إننا لم نُغوهم قسراً ، فما كان لنا على قلوبهم من سلطان

إنما وقعوا في الغواية عن رضى واختيار ، كما وقعنا نحن فيها دون إجبار ، تبرأنا إليك من جريمة إغوائهم ، فما كانوا إيانا يعبدون ، إنما كانوا يعبدون أنفسهم الأمارة بالسوء ، وهي التي سوّلت لهم أنفسهم أن يطيعونا ، كما أن كل من يعبد من دون الله إنما يرفض عقله ويتبع هواه .

هنا نجد المغوين صادقين من ناحية وكاذبين من أخرى : فصدقهم : « أغويناهم كما غوينا » ولكنه ليس عذراً رغم أنهم يقصدون به الإعذار .. وصدق آخر : « ما كانوا إيانا يعبدون » لو أرادوا أن الضعفاء إنما عبدوا أهواءهم مبدئياً ؛ ولذلك أطاعونا ؛ إذ وجدوا فينا أهواءهم .. وكذبهم : أنهم ما دعوهم إلى عبادتهم ؛ وأنهم ما عبدوهم ! فإنهم عبدوهم وإن كانت ناشئة عن عبادتهم لأهوائهم..ووجه آخر أن « ما » هنا موصولة وليست نافية . والمعنى : تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا .. وكما يكفر زعيمهم الأول : « إني كفرت بما أشركتمون من قبل » .

الضعفاء :

.. إن الضعفاء المقصرين – وهم درجات – سوف يعذبون حسب ما كان يقصرون ..

فالذين سامحوا عن عقولهم وتخاذلوا تجاه المستكبرين – آلهة الأرض – وانضموا إلى حزبهم ، فأولئك من أصحاب النار ، جهنم يصلونها وبئس القرار ، بئس للظالمين بدلاً .

وإذ يتحاجون في النار :

« فوقاه الله سيئات ما مكروا وحـــاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوّاً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب . وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنـا نصيباً من النار . قال الذين استكبروا إنا كلٌّ فيها إن الله قـد حكم بين العباد . وقال الذين في النار لخزَنَة جهنم أدعوا ربـكم يخفف عنا يوماً من العذاب . قالوا ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال . إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهـــاد . يوم لا ينفع الظـــالمين معذرتهم ولهـــم اللعنة ولهم سوء الدار » (٤٠ : ٤٥ — ٥٢) .

« ونادوا يا مالك لِيَقضِ علينا ربُّك قال إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » (٤٣ : ٧٧ — ٧٨) .. فأكثر المجرمين كانوا للحق كارهين — مهما كان الأقل ، لا كارهين ولا محبين ، وإنما متساهلين عن الحق ، ولذلك ضلوا بما أضلهم الضالون .

« وإذ يتحاجون في النار » .. إن المحاجة في النار هي نار فوق النار ، إنها من ضِعف العذاب ، وإذ لا يخلو أهل النار ممن

أضل أو ضلّ ، ممن ساير العصاة وزاملهم ، ممن دخل في جمعهم ، فيوم القيامة هم يتحاجون في النار ، ويا لها من عذاب في العذاب وفوق العذاب :

« فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار » .. وكما كنتم قائليها لنا وللمؤمنين : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون . وَلَيَحْمِلُنَّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ولَيُسْئَلُنَّ يوم القيامة عما كانوا يفترون » (٢٦ : ١٢ — ١٣) .

.. إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استضعفوهم ، لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً وإمعات ، ولم يخفّف عنهم أنهم كانوا غنماً تنساق : لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار ، ولم يُغنِ رعاتهم رغم ما وعدوهم : « ولنحمل خطاياكم » .. « وما هم بحاملين من خطاياهم شيء إنهم لكاذبون » .

كنا لكم تبعاً :

لقد منحهم الله كرامة الإنسانية ، كرامة العقل والإستقلال بحكمه ، لكنهم تنازلوا عنها جميعاً ، تنازلوا وانساقوا وتخاذلوا وراءَ الكبراء والطغاة ، وراء الطواغيت : آلهة الأرض :

الفراعنة والنماردة ، وهم في كل عصر ومصر .. لم يقولوا لهم : « لا » بل لم يفكروا أن يقولوا « لا » بل لم يروا أنفسهم أهلا لهذا التفكير ولهكذا مقالة ، وإنما حياتهم كانت حياة التبعية ، متحملين تبعات هذه التبعية ، إنما حياتهم : « إنا كنا لكم تبعاً » .

« قال الذين استكبروا إنا كلٌ فيها إن الله قد حكم بين العباد » ..

.. إنا كلٌ ضعاف — هنا — لا نجد نصيراً ولا يغنينا من عذاب الله شيء ، فقد كذبنا فيما وعدناكم ، فهنا الكبراء والضعفاء على سواء : « إن الله قد حكم بين العباد » .. أخبرنا عن حكمه يوم الدنيا بخبراء الوحي ، وطبّق حكمه يوم الميعاد ، فلا مجال لتراجعه عما حكم ..

هنا ييأس الضعفاء ، فينعطفون إلى خزنة جهنم ، في ذلة وضراعة — هم والذين استكبروا — رغم العلم : أنهم في النار خالدون . لا يخفف عنهم العذاب وهم فيها مبلسون :

« وقال الذين كفروا لخزنة جهنم أدعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب » : زمناً من العذاب ولو قليلاً .. « أدعوا ربكم » : إذ هو يستجيبكم بربوبيته وحنانه لكم « لا ربّنا » إذ انقطعت صلة ربوبية الرحمة بينه وبيننا ، حيث قطعناها بما كفرنا من قبل ،

أجـــل : وبـكم – لا : ربنا – مع أنه ربّ العالمين أجمعين ، لأن من ربوبيته لنا هنا هي جزاء الكفر بالعذاب: جزاءً وفاقاً ، ومن ربوبيته لكم: «فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين» فلتدعوا ربكم يخفّف عنا يوماً من العذاب – إكراماً لكم ، لا لنا !.

ولكنهم: « عبادٌ مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم مـا بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون . إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » (٢١ : ٢٦ – ٢٨) .. فليس لهم إلا القول : « أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بـلى – قالوا : فادعوا – وما دعاء الكافرين إلا في ضلال» .. كما كان يوم الدنيا من ضلال وفي ضلال إلى ضلال ، وهنا يجدون الأثر ، ويذوقون الثمر ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة .

حياة الاستقلال والاستغلال :

إن حياة المسلم حياة الإستقلال ، واستغلال كل الوسائـــل المباحة لدحر الضلال ، مهـــما كانت حياة جماعية تضامنية ، والإنضمامية في المجتمع إسلامياً لا تعني إلا التبعية الصالحة بحكم العقل ، إتّباع الجاهل للعالم والعاقل للأعقل ، والمهتدي للذي هو أهـدى سبيلاً ، دون أن يفقد عقله ويتجاهل عمـا وهبه الله من كرامات الإنسانية .. وحـتى الحق لا يقبله إلا بدليل وكيف بالباطل ، وكيف بتبعيته للباطل دون تفكير !

آلهة الأرض :

.. لقد أضلّت آلهة الأرض الضعفاء الحمقاء ، فضلوا ، ثم يوم القيامة يضلُّ كلٌّ قرينه ويتناكرون فيما بينهم عبادتهم ولات حين مناص :

« .. حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكلٍّ ضعفٌ ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون . إن الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط وكذلك نجزي المجرمين . لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين » (٧ : ٣٧ – ٤١) .

« .. ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذنّاك ما منا من شهيد . وضلّ عنهم ما كانوا يدعُون من قبل وظنوا ما لهم من محيص » (٤١ : ٤٧ – ٤٨) .

« في الحميم ثم في النـــار يُسجرون . ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون . من دون الله قالوا ضلوا عنـــا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين . ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون » (٤٠ : ٧٢ — ٧٥) .

حوار بين الملائكة وأهل النار :

.. « قالوا : أين ما كنتم تدعون من دون الله » ؟ أين آلهـة الأرض وطواغيتها ؟ أين فراعنتها ونماردتها ؟ أين هم ؟ وقد كانوا ظاهرين في الأرض متظاهرين : تصمّ الأسماع صرخاتهم ، وتهيب العيون جلواتهم ، كأنهم ملكوا الدنيا بأسرها لا سواهم ، وكأنهم آلهة الأرض والسماء لا سواهم .. فأين ! أين هؤلاء ! أين هي الآن في اللحظة الحاسمة التي تسلب منكم الحياة ، فلا تجدون عاصماً من الموت ولا محيداً عما بعد الموت من عذاب .

ثم يكون الجواب هو الجواب الوحيد ، الذي لا معدى عنه ولا مغالطة فيه :

« ضـــلوا عنا » .. غابوا عنـا وتاهوا ، فلا نعرف لهم مقراً ، ولا هم يسلكون إلينا طريقاً ، فما أضيع عباداً ضائعين لا تهتدي إليهم آلهتهم ولا هم إليها يهتدون .. وفي مثل هـــذا الأوان الضارب بأعماق الحياة وأعراقها !

« ضلوا عنا » : إذ لا يملكون شهوداً ولا شفاعة لو شهدوا ، فهم ضالون عنا وإن شهدوا ، رغم ما كانوا شاهدين في الدنيا وإن غابوا ، وهم ضالون عن خواطرنا إذ تبين لنا مكانتهم : ألا مكانة لهم .

« وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » فانضموا إلى شهود الله على أنفسهم بأنفسهم ، فيا ويلاه أن لو كان الإنسان شاهداً على نفسه ! فهل هناك ساعة أصعب عليه من هذه الساعة المزرية ؟

بين الآلهة وعبّادها :

ثم يأتي دور المشاهدة بين الآلهة وعبّادها ، حوارٌ في النار وبئس الحوار : « .. حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم » : قالت الأتباع للمتبوعين ، العبَدة للآلهة ، قالت لها كأنها لا تخاطبها ، وإنما تشتكي عليها وتلتمس لها ضعف العذاب : « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » .. وهكذا تبدأ مهزلتهم ومأساتهم ، ويكشف المشهد عن واقعهم وهم متناكرون أعداء ، يتهم بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً : « الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » (٤٣ : ٦٧).. ويطلب له من الرب شر الجزاء ، من الرب الذي كانوا عليه يفترون ، وبآياته يكذبون !

هنـا تستجاب دعوتهم وزيادة – على آلهتهم كما دعوا ، وعلى أنفسهم ولم يدعوا : « قال لكلٍّ ضعف ولكن لا تعلمون » : لا تعلمون أنتم الضالون أصل الضعف ، ولا أنتم المضلون مقدار الضعف ، فالضال يفرح زعم وحدة العذاب، والمضل يفرح زعم مماثلة العذاب : وفيه شماتة من العدو الضال للذي ضل « لكلٍّ ضعف » : للمضل بضلاله وإضلاله ، وللذي ضل ، بقبوله الضلالة وتقويته للضال.. « ولكن لا تعلمون »: أصلَ الضعف ومقداره: فتزعمون وحـــدة العذاب لكم مضاعفته على المضلين ، لكنه « لكل ضعف » ، وإن كان ضعف المضـــل أكثر « ولكن لا تعلمون » لا هـــذا ولا ذاك – فضِعفهم أكثر من ضِعفكم : « .. وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » .. ولكنما هما شريكان في أصل المضاعفة ، رغم الزعم في وحـــدة العذاب ، فتوجه إليهم شماتة المضلين : « وقالت أولاهم لأخراهم فما كان علينا من فضل! فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » ..

ولقد كذب المضلون وأخطأ الضالون هنا أو جهلوا المعني من: « لكلٍّ ضعف » وكما نبه : « ولكن لا تعلمون » : لا تعلمون أصل الضعف : « الضالون » ولا مقـدار الضعف : « المضلون » وهما ثابتان جزاءً وفاقاً، وأما المقدار فللمضلين أكثر وأشد لأنهم كانوا رؤوس الضلالة ، والآخرين أذنابها (ومن سنّ سنة سيئة

كان عليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم) .

.. وأصبح هذا الكذب عذاباً على التابعين فوق العذاب ، ريثما يكشف النقاب فيعرفوا أنهم كانوا كاذبين ، وطالما يكذب الظالمون ، وعند الموت أيضاً : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السَّلَمَ ما كنا نعمل من سوءٍ بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون » (١٦ : ٢٨) .

وكما يكذب التابعون أيضاً ، زعم أنه يثمر كما في الدنيا : « أين ما كنتم تدعون من دون الله . قالوا ضلوا عنا بل لم نك ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الظالمين » .. يتبرأ العابدون من المعبودين كما العكس ، ولكن هل يا ترى أن كذبهم ينفع ؟

استنكار الشركاء في حوار :

« وإذا رأى الذين أشركوا شركائهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم السَّلَمَ إنكم الكاذبون . وألقوا إلى الله يومئذٍ السلم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون . الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون » (١٦ : ٨٦ — ٨٨) « ويوم يحشرهم وما يعبدون من

دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك من أولياء ولكن متّعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً . فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً » (٢٥ : ١٧ — ١٩) .

أنظرونا نقتبس من نوركم !

.. هل ينتفع الضالّ باهتداء المهتدين يوم الدين ؟ أم للإنسان ما تمنى دون سعي ؟ أم ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ؟

غيرنا يزعم أن ليس النجاح في شريعة السعي والعمل ، ليس في التقيّد بشريعة الناموس ، إنما هو برفضها والإيمان بالتضحية ، أن فلاناً ضحّى وصلِب أو قتل ، فتحمّل بهذه التضحية الحاسمة ، تحمّل كافة لعنات الناموس ، فلا ينفعك إلا الإيمان بالمضحّي هكذا ، لا ينفعك العمل بالشريعة !

غيرنا يزعم هكذا ، فيأخذ حريته في الحياة ويدعي الإيمان الكافل للفلاح .

وأما نحن فنقول كما قال ربنا : « وأن ليس للإنسان إلا ما

سعى » سواء في الآخرة أو الدنيا، طالما في الدنيا يغتصب البعض مساعي غيره ، ولكن في الآخرة لا ظلم ولا اغتصاب ، فمصير الكل إلى ما قدمته نفسه .

* * *

حوار بين المنافقين والمؤمنين :

« يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضُرب بينهم بسورٍ لهم بابٌ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَلِهِ العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرّتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغَرور . فاليوم لا يؤخذُ منكم فِدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير » (٥٧ : ١٢ – ١٥) .

.. مشهد من مشاهد القيامة – عظيم – ترى فيه المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، نورٌ حصّلوه يوم الدنيا ، فينير الأجواء لهم يوم الدين .

إنهم ما كانوا يفكرون ويعملون يوم الدنيا إلا فيما بين أيديهم ولما بين أيديهم : من الآخرة ، وذلك بطاقاتهم الإيمانية ، بأيمانهم الذي هو إيمانهم ، فما فسحوا مجالاً للشيطان ، أن يأتيهم من بين أيديهم ولا عن أيمانهم ، إذ أعدّوا فيها ما كانوا يستطيعون من قوة ، فلم يبق مجالٌ للشيطان أن يأتيهم من خلفهم وعن شمائلهم أيضاً ، إذ لم يكونوا يفكروا فيما خلفهم : من الدنيا ، إلا كونها مزرعة للآخرة ، فأصبح ما خلفهم كما بين أيديهم.. وإذ لم يعطوا الحرية لشمائلهم : شهواتهم ، وإنما حصروها في حصار أيمانهم : إيمانهم ، فأصبحت شمائلهم أيماناً ، وكأنها الأيمان ، أصبحت دنياهم آخرة ، وشهواتهم ديناً ، فإن المؤمن دنياه آخرة ، وشهواته لا تعدو ما خططه مرسوم الإيمان .

بهذه الأسلحة كافحوا الشيطان ، فلم يسطع لهم ضلالاً ، فظهرت يوم الدين نوراً بين أيديهم وبأيمانهم .. يسعى نورهم : الذي سعوا يوم الدنيا في تحصيله وتكميله ، يسعى كما سعوا : « بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » .

.. إن هذا النور ليس كنور السراج الذي يضيء ما حوله ولمن حوله ، شاء صاحبه أم لم يشأ .. كلاّ ! إنه إشعاع لطيف هادىء ، إنه استجرار نور الإيمان ، ظهور عقيدة الإيمان وعمل الإيمان ، لا يضيء — ولا يمكن أن يضيء — إلاّ لصاحبه الذي

حصّله وسعى فيه .. فـــلا يتحمل الإلتماس لمن لم يسع له : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » (٢٤ : ٤٠).

هناك ترى المنافقين والمنافقات في حيرة وضلال ، في مهانـة وإهمال ، وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات ، « انظرونا نقتبس من نوركم».. فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشعُّ ذلك النور اللطيف الشفيف ، ولكن هل يا ترى بإمكان المنافقين أن يقتبسوا منه ، فأنى لهم أن يقتبسوا من ذلك النور ؟ وقـد عاشوا حياتهم كلها في الظلام ، فسحوا المجال للشيطان أن يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، فأظلمـوا على أنفسهم وأطفئوا نور العقـل والفطرة الذي أضـاءه الله في دواخل ذواتهم .

وإذ ذاك تسمع صوتاً مجهلاً يناديهم – وكأن المنادي غـير المؤمنين، إذ يترفعون عن جواب هؤلاء الضالين – : «قيل ارجعوا ورائكم فالتمسوا نوراً » .

إرجعوا ورائكم فالتمسوا نوراً :

ويبدو أنه للتهكم والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفـاق ودسّ وانطماس في الظلام : ارجعوا وراءكم : إلى الدنيا ، إلى ما كنتم تعملون ، ارجعوا فـالنور يُلتمس من هناك ، فليس اليوم يلتمس نورٌ .

ولكن هل يا ترى بإمكانهم الرجوع؟ أو يستجاب لهم التماس الرجوع ؟ كلا ، « ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون » (٦ : ٢٨) « ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال اخسأوا فيها ولا تكلمون » (٢٣ : ١٠٧ — ١٠٨) « .. قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » (٢٣ : ٩٩ — ١٠٠) ، « ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمّركم ما يتذكر فيه من تذكّر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » (٣٥ : ٣٧) .

.. وعلى الفور يُفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات ، فهناك يوم الفصل بينهم ، رغم الإختلاط في الدنيا: « فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب » .

إنه السور الذي ضربه المنافقون — يوم الدنيا — بينهم وبين المؤمنين ، وكان لهم منه بابٌ أن ينضموا إلى المؤمنين ، ولكنهم صدُّوا على أنفسهم الباب أيضاً : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوه ولهم عذاب عظيم » (٢ : ٧) .

فهذا السور يُضرب بينهم وبينهم بما قدّمته أيديهم ، جزاءً بما كانوا يعملون .

إنه سورٌ يمنع عن الرؤية ولا يمنع الصوت ، وإنـه باطنه فيه الرحمة، والمؤمنون هم بباطنه ، لا يرون إلا الرحمة، ولا تمسهم إلا الرحمة ، طالما الظاهر منه من قِبَله العذاب .. ولأنهم تعلقوا بظاهر الدنيا يومها فأنتج لهم العذاب، ولكن المؤمنين لم يُبصروا إليها كأنها منتهى المد من أبصارهم ، وإنما أبصروا بها ، وعلى حد قول الإمام علي عليه السلام في وصف الدنيا : « من أبصر بهـا بصّرته ومن أبصر إليها أعمته » . ولكن المنافقين : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون » (٣٠ : ٧) .

أصبحت الدنيا – وهي سورٌ وجسر عليها يُعبَر – أصبحت لأهلها عذاباً ، ولتاركيها إلى الآخرة رحمة : « فضُرِب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » .

هنـا نرى جولة ثانية في حوار من المنافقين أهل الظاهر ، يتساءلون فيه مع المؤمنين : « ينادونهم ألم نكن معكم » .. نعيش في صعيد واحد، وجوٍّ واحد ، لقد كنا مجتمعين، فلماذا التفرقة هنا ، رغم الإجتماع هناك ؟

يسألونكم كأنهم يحتجون ، على المؤمنين وعلى الله ! زاعمين أن المعية الجسدانية تنفع أو تضر ، وأن الآخرة مثال الدنيا في كل شيء ! كما يزعم معهم الكثيرون : أن النسب يفيد ، وأن الجوار يفيد ، وأن شيئاً وراء القلب السليم والعمل السليم يفيد .

رغم أن المعيـة إنما تفيد إذا كانت في عقيدة الإيمان وأعمال الإيمان ، وإن كانت هنـاك تفرقة في نسب أو إقليم أو لغة أو حسب أو نسب ، إنمـا المعيَّة الروحانية ، لا الجسدانية : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

فهل ياترى إن المعية هنا – النأتج عنها ما نتج – إنها معية في المولد أو القرابة أو اللغة أو أشباهها من المعيات غير المعنوية ؟..

كلا ! وكما نرى الجواب من المؤمنين : « قالوا: بلى » كنا معكم ، معكم فيما تزعمونه ينفع ، ولم تكونوا معنا فيما ينفع :

« ولكنكم فتنتم أنفسكم » .. إنها فتنة النفس التي فرقت بيننا وتظل مفرِّقة يوم الآخرة ، فتنتموها فصرفتموها عن الهدى بعد إذ جاءكم ..

« وتربصتم » : في الفتنة دون أن ترجعـوا عنها وتختاروا الخيرة الحاسمة ..

« وارتبتم » : فيما لا ريب فيه من الحق ، دون سناد إلى سناد الحـــق .

« وغرتكم الأماني » : الأماني الباطلة في أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها : نفاقاً عارماً في الدنيا والدين. .. « حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور » ..

« فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير » .

أسباب البوار والدمار :

لو كنا نسمع أو نعقل ! إنما هو السمع عن العقلاء أو التعقل يفلح الإنسان ويفلج خصامه ، ويدخله الجنة التي عرفها الله ، كما الترك يفلج ؟

« كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذّبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إنْ أنتم إلا في ضلال كبير . وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » (٦٧ : ٨ — ١١) .

« لو كنا نسمع أو نعقل » : نسمع عن العقلاء الصالحين ، أو نعقل في أنفسنا « ما كنا في أصحاب السعير » : فالذي يسمع أو يعقل لا يورد نفسه في المورد الوبيء ، ولا يجحد ما جحد به أولئك المناكيد ، ولا يسارع باتهام الرسل بالضلال على هذا النحو المتبجح الوقح ، حيث لا يستند في الأفكار إلى عقل ولا دليل ، ويسرف في الإنكار قائلاً : « ما نزل الله من شيء إن أنتم في ضلال كبير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » : إنهم أصحاب السعير

يومذاك ، الملازمون له ، كما كانوا من أصحابه يوم الدنيا : في سعير التكذيب ، ويا لها من نكير صحبته ! ويا له من مصير !.

وماذا عليهم لو سمعوا من العقلاء أو عقلوا ! .. إن حدود الوجود للإنسان كإنسان ، إنها سمعه ممن يكلّمه ، وعقله في نفسه ، وإذا انضم البعض بالبعض ، يصبح الإنسان في حياة ازدواجية عقلية لا يضل فيها ، وأما إذا حصر سمعه بالمضلات ، وعقله بالشهوات ، فهو السعير في نفسه ، وإنما سعير النار صورة واقعية عن سعير النفس يوم الدنيا .

وهذا العذاب ـ عذاب السعير ـ في الجحيم التي تشهق بأنفاسها وهي تفور ، إنه مروّع حقاً ، ولا يظلم ربك أحداً .. إن هذه النفس الشريرة ، الفارغة من كل خير ، من الميزة الإنسانية ، من العقل والنظرة ، إنها كالحجر الذي توقد به الجحيم ، وقد انتهت إلى نكسة وركسة ، مكانها هذه النار ، جهنم يصلونها وبئس القرار ، إلى غير نجاة ولا فرار .. لا فحسب :

فالنفس التي تكفر بالله تجاهلاً عامداً عما منحه الله من العقل والنظر ، إنها تظل في انتكاس وارتكاس في كل يوم تعيشه ، منكرة جهنمية نكيرة .

هذه النفوس الشاردة المفلتة من أواصر الوجود ، الشاذة الشريرة ، الجاسية المسوخة النافرة .. إنها تنتهي إلى جهنم

المتغيظة المتلظية الحارقة : « تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير » ؟ :

ألم يأتكم نذير :

سؤال يوجه إليهم للتأنيب والترذيل ، وليس أمرّ من الترذيل والتأنيب للضائق المكروب ، عذاباً فوق العذاب :

« ألم يأتكم نذير » ؟ من دواخل ذواتكم : فطركم وعقولكم ، ومن آيات الله البينات : الكونية واللفظية ، ومن رجالات الوحي حملة الرسالات الإلهية ، المزوّدين بالمعجزات ..

ويأتي الجواب في ذلة وانكسار واعتراف بالغفلة والحق : « قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا .. » .

حوار بين أصحاب اليمين والمجرمين :

« كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين . في جنات يتساءلون عن المجرمين . ما سلككم في سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين . فمالهم عن التذكير معرضين . كأنهم حُمُر مستنفرة . فرّت من قَسْورة » (٧٤ : ٣٨ — ٥١) .

رهانة النفوس :

على مشهد النفوس الرهينة بما كسبت . المقيدة الأسيرة بما فعلت . يعلن اطلاق أصحاب اليمين – أصحاب الدين الحقيقيين – من العقال ، ويخوّلون حق سؤال المجرمين ، كرامة لأصحاب اليمين ، ومهانة للمجرمين :

أجل : إنهم يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوّض ، بينما المجرمون ما كانوا يحفلونهم يوم الدنيا ، ولا يبالونهم في موقف الكرامة والاستعلاء ، ولا يعتبرون لهم كياناً يجنبهم .. ولكنهم الآن يجزون بما صبروا ويسألونهم كأنهم وزراء في الحكم يوم الدين ، وإنهم أصحاب اليمين:

« في جنات يتسائلون. من المجرمين . ما سلككم في سقر»؟:

وترى المجرمين لا يتمالكون من أنفسهم إلا أن يجيبوا متخاذلين ، أمام المؤمنين :

لم نك من المصلين :

« قالو لم نك من المصلين » .. فهل ياترى إن الصلاة تدخل تاركيها وتصليهم الجحيم؟ وهل إنها أول ما تُدخل في الجحيم ؟ :

قد يكون الجواب : أن الصلاة هنا كناية عـن الإيمان كله ، إشارة ما أعمقهـا ، إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة ، وأنهـا رمز الإيمان ودليله ، يدل إنـكارها على الكفر ، وتخطو بتاركها إلى الكفر .

ولكنها لو كانت رمزاً ولم تكن أصلاً ، لكان في عدم الإيمان كفاية في دخول الجحيم ، دون حاجة إلى الثلاثة الباقية ، إذاً فترك الصلاة عقيدياً وعملياً . إنه من الأسباب الرئيسية لدخول الجحيم .

فهل ياترى : هذا التارك لعبادة الله ، لتعظيم الله : لصلاة الله ، وهو لا يـترك عبادة الجسد ، عبـادة اللهو ، عبادة البنـات ، وهو يحترم كلّ صديق وعدوّ ، فماذا يكون مصيره لو سئل :

احترمت عبادي وأهنتني ، شكرتهم وكفرتني ، أنكراناً لربوبيتي ، أم تأليهاً لخلقي وترجيحاً لهم عليّ ؟

فماذا يكون الجواب إذاً ، من هذه الذات الجهنمية ؟!

إن ترك الصلاة ترك لأبسط ما على العبد من العبادة ، إذ لا تحمّـل الإنسان مالاً ولا وقتـاً زائداً ولا يعرضه لأخطار .. فكيف حاله لو أمر بالجهاد والزكاة ؟

« لم نك من المصلين » : هذا تقصيرنا تجاه الخالق ... ثم تقصيرنا تجاه المخلوقـين : « ولم نك نطعم المسكين » : الإنسان الذي

أسكنه العُدم عن الحراك في الحياة ، ما كنا نحسب له في أموالنا حساباً .

ثم لم نكن نكتفي بترك العلاقة الفردية الإيمانية ، والعلاقة الجماعية ، فقد « كنا نخوض مع الخائضين » .. وإنها تصف حال الاستهتار بالعقيدة ، وأخذها مأخذ الهزل واللعب والخوض بلا مبالاة .

إنها حالة المسايرة مع الذين يخوضون في آيات الله ، نكراناً وتكذيباً لها ولعباً بها .

ثم أخيراً « وكنا نكذب بيوم الدين » : تكذيباً عقيدياً وعملياً ، وإنه أسّ البلايا ، فالذي يكذّب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين ، وتضطرب في تقديره جميع القيم ، تصبح حياته حياة اللامبالاة ، في كافة مجالات الحياة ، إذ لا يعتقد عن أعماله سؤالاً ، ولا فيها وزراً ولا وبالاً ، فلماذا يترك ما تهواه نفسه ؟.

« حتى أتاه اليقين » : وهكذا استمرت حياتنا الشاذة الشاردة تجاه الخلق والخالق ، تجاه العقيدة والعمل ، دون أن نتوب ، أو نفكر في أن نتوب .

هؤلاء !. وأما الذي يترك الصلاة لفترة ، جهلاً وغفلة ، ثم يتوب ويواصل في الصلاة فهو ممن يعفى عنه [1] ..

---

(١) راجع بحث التوبة والغفران في كتابنا « عقائدنا » .

تخاصم أهل النار :

ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ؟

« وإن للطاغين شر مآب . جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق . وآخر من شكله أزواج . هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار . قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار . قالوا ربّنا من قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار . وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدّهم من الأشرار . اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار . إن ذلك لحقٌّ تخاصم أهل النار » (٣٨ : ٥٥ — ٦٤) .

« وجاءت كلّ نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه هذا ما لديّ عتيد . ألقيا في جهنم كلّ كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد . قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد . قال لا تختصموا لديّ وقد قدّمت إليكم بالوعيد . ما يبدّل القول لديّ وما أنا بظلاّم للعبيد » (٥٠ : ٢١ — ٢٩) .

« كنا نعدُّهم من الأشرار » :

ها هم أولاء يقتحمون النار فوجاً بعد فوج ، ويفتشون عمن

في النار ، فيفتقدون المؤمنين الأبرار ، الذين كانوا يتعالون عليهم يوم الدنيا ويظنون بهم شراً ، فها هم أولاء يفتقدونهم فلا يرونهم معهم مقتحمين في النار : « وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار » ؟

تقوله السلطات الباطلة للثائرين الأحرار ، إذ كانوا يعدونهم من الأشرار .

ويقوله الأغنياء الأغبياء المحتكرون الأقوات ، المسكون عما يتوجب عليهم من الإنفاق ، يقولونه للفقراء الأحرار الذين كانوا يطالبونهم بما فرض الله لهم عليهم .

وتقـــوله الفراعنة والنماردة ، والمستعمرون المستحمرون ، للمتخلفين عن سلطاتهم الشريرة ، الثائرين عليهم ..

يتساءلون : أين هم ؟ أين ذهبوا ؟

« أتخذناهم سِخريّاً » : فهـل كنا نسخر منهم دون حق إذ كنا نعدهم من الأشرار ؟ أم إنهم هنا ولكنهم : « زاغت عنهم الأبصار » .. وكما كانت تزيغ عنهم أبصارنا يوم الدنيا، لا نحسبهم شيئاً ، كذلك هنا في دار القرار ، لقد زاغت عنهم الأبصار .

.. إنهم لم يتنازلوا عما كانوا يوم الدنيا ، إلا إلى الشك في أمر الأخيـــار ، هل إنهم كما كانوا نعدّهم ، ولكنهم زاغت عنهم الأبصار ، أم اتخذناهم سخرياً ، إلا أن رؤية العذاب قدمت لهم

احـــتمال الصدق : « اتخذناهم سخرياً » وأخرت لهم كذبهم : « أم زاغت عنهم الأبصار » ..

وقد يحتمل أنه ليس هذا شكاً منهم كلهم ، وإنمـــا عرض لتخاصم أهل النـار فيمن عدّوهم من الأشرار ، و : « إن ذلك لحقٌ تخاصُم أهل النار » وإذا لم يكن هذه القضية المرددة اختلافاً وتخاصماً بين أهل النار ، لم يبق مجـــال هنا للقول : « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » فما هو « هذا » وإلى مَ تشير « ذلك » إذن ، هل إلى التخاصم غير المذكور هنا ؟ وإذا كان إشارة إلى التخاصم الموجود ، فما هو إلا قولهم: « ما لنا لا نرى .. اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار » .

هذا فليكن الفريق الأوّل أخف كفراً وغباوة إذ اعترفوا دون مهل ، في حين لم يتنازل الفريق الثاني عن عميهم واستكبارهم: « أم زاغت عنهم الأبصار » ولكن النـار سوف تفهّمهم وبئس القـــرار .

.. هـــذه هي حالة الرعونة من المترفين الذين غمرتهم الدنيا بأغمارها ، فلا يقفون لحـــدّ في غور الباطل وتكذيب الحق ، لحدّ يحسبون الأبرار أشراراً ، والأشرار أبراراً .

فإذا رأوا من يُسايرهم في لهوهم وفيما هم إليه سائرون ، قالوا عنهم أنهم من الأخيار .

وإذا رأوا تقوىً وتقيّداً بقيود الشريعة الإلهية، قالوا: إنهم هم الأشرار، نظرة بعين الحيوان، رفضاً لنظرة الإنسان.

وهم في غفلتهم وغفوتهم حـــتى يوم تظهر الحقائق، يوم يرون النار؟

هل من خروج؟

« حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون. لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » (٢٣ : ٩٩ — ١٠٠).

« ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذّبون. قالوا ربّنا غلبَت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عُدنا فإنا ظالمون. قال اخسئوا فيها ولا تُكلّمون. إنـه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمـين. فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بمـا صبروا إنهم هم الفائزون » (٢٣ : ١٠٥ — ١١١).

« .. يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُردُّ فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » (٧ : ٥٣).

« وهم يصطرخون فيها ربّنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي

كنا نعمل أوَلم نُعمِّركم ما يتذكَّر فيه من تذكَّر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » (٣٥ : ٣٧) .

« وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخِّرنا إلى أجل قريب نُجِب دعوتك ونتَّبع الرسل أوَلم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيَّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال . وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » (١٤ : ٤٤ – ٤٦) .

« حتى إذا جاء أحدهم الموت » .. وإنه مشهد الإحتضار ، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت : « قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت »: يطلب الرجعة إلى ما كان فيه ، ليعمل صالحاً فيما ترك من الحياة ، ومن أعمال الحياة المفروضة عليه .. وي كأنّ المشهد معروض اللحظة للأنظار ، مشهود كالعيان .. فيأتيه الجواب ، الذي هو كعذاب فوق العذاب :

« كلا انها كلمة هو قائلها . . » !

كلمة لا تعدو عالم اللفظ والقول ، إنها تقوّل كالقول ، لا مدلول ورائها ، ولا تستحق العناية بها ، فإنها كلمة الموقف الرهيب ، لا كلمة المخلص المنيب ، كلمة تقال من كل قائل في هذه الحال ، في لحظة الضيق واختناق المجال ، ليس لها في القلب ولا في الواقع رصيد .

كلمة بها ينتهي مشهد الإحتضار ، ويدخل قائلها من ورائها إلى برزخ إلى يوم يبعثون ،حين تنقطع الصلات ، وتنغلق الأبواب ، وتسدل الأستار : « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » .

.. ومن ثم يسمعون كلمة الحق والتبكيت تقال : « ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ».

فيرجعون الجواب كالمعتذر القاصر :« قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا و كنا قومـــاً ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » ..

يكررون سؤال الرجعة مرة ثانية إذ دخلوا النـار ، وليس الجـواب إلا كما يجاب الكلب العقور : « قال اخسئوا فيها ولا تكلمّون » .. فقد اعترفوا بمـــا تتجلى فيه المرارة والشقوة ، وطلبوا العودة إلى دنيا التكليف دون عودة إلى أعمالها الفاسقة ، وسمعوا الجواب ، الذي هو عذاب فوق العذاب« اخسأوا .. »: اخرسوا خرس الكلاب « ولا تكلمون » : بغـير الصواب .. « إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت أرحم الراحمين . فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري و كنتم منهم تضحكون » :

« وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل » .. هنا يرجع الجواب بحجة بالغة دامغة ، إضافة إلى تكذيبهم فيما يدعون : « أو لم نعمّركم ما يتذكّر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » :

إن جرَس اللفظ هنا يخبرنا بالمعنى قبل أن نسبر غوره ، إنه يلقي في الحس ما يلقيه في الروع ، إنه يدمغ الملتمس الخائن الظالم: عمّرناكم ما يتذكر فيه من تذكر ، فلم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر ، وهي كانت كافية لمن أراد أن يتذكر : « وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » .

كانوا من الذين آمنوا يضحكون !

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مرّوا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالّون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون ، هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون » (٨٣ : ٢٩ – ٣٦) .

إنها جزاء وفاق بكلّ ما له من معنى .. فلقد كان المجرمون لا يكتفون بإجرامهم .. إنهم كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، استهزاءً بهم ، لفقرهم ورثاثة حالهم ، لضعفهم عن رد الأذى ، ولترفُّع هؤلاء عن سفاهة أولئك السفهاء ، لزعمهم أنهم ليسوا

على شيء ، فكل هذا كان مما يثير الضحك ، فقد اتخذوا المؤمنين مادة لسخريتهم أو فـكاهتهم المرذولة ..

« وإذا مروا بهم يتغامزون » : هـؤلاء الأوغاد يتغامزون على المؤمنين سافرين ، وليست إلا حركة وضيعة واطية تكشف عن سوء الأدب والتجرد من التهذيب ، بقصد إيقاع الإنكسار في قلوب المؤمنين ، وإصابتهم بالخجل والربكة .

« وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين » : فكهين متفكهين ، راضين عن أنفسهم ، مستمتعين بهذا الشر ، وممتّعين بنقله لأهلهم .

« وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون » : إنه تجاوزٌ عن جميع الحدود ، دون أن يقف لحد ، أو يستحي من قول ، أو يتلوّم من فعل ، وإلى حد اتهام المؤمنين أنهم ضالون : ضلوا سبيل الحياة فظلّوا يعبدون من لا يرون ، ويتعبون أنفسهم لما يوعدون ، تاركين للنقد الواقع بالنسيئة الموعودة .

إنهم يُحرمون أنفسهم مُتع الحياة ، علّهم يجدونها مضاعفات وراء الحياة .. إن هؤلاء لضالون .

ولكنهم لماذا يقولون هكذا ؟ فهل لهم ولاية على المؤمنين ؟ فهل أرسلوا عليهم حافظين ، يحفظونهم عن الضلال ؟ : « ومـا أرسلوا عليهم حافظين » !

هذا ما كان من المجرمين تجاه المؤمنين ، ولكن الأمر سوف ينعكس : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثوّب الكفار ما كانوا يعملون » ؟ :

هل ثوّبوا بما حاولوا في ارتداع المؤمنين عن أعمال الإيمان وعن عقيدة الإيمان ، هل ثوبوا زعم أنهم أرسلوا عليهم حافظين ، أجل إنهم أرسلوا من إبليس اللعين ، فليثبهم الشيطان بما كان منهم ، ولكنهم في العذاب يومئذ مشتركون .

الدكتور محمد الصادقي

□□□□

دار التراث الإسلامي - بناية درويش - الطابق الخامس - هاتف ٢٣٦٦٠٣
ص.ب ٩٥٨٤ بيروت - لبنان

الثمن : ٢٠٠ ق. ل. او ما يعادلها